التّوجيه المعجمي للقراءات القرآنية
دراسة تطبيقية لنماذج من القراءات المتواترة

د. توفيق جعمات
جامعة عمار ثليجي الأغواط - الجزائر

الملخص:

يهدف المقال إلى إعطاء نبذة عن علم توجيه القراءات القرآنية، متعرضا لتعريف توجيه القراءات لغة واصطلاحا، ثم ذكر اتّجاهات التّوجيه المختلفة، مع التّركيز على التّوجيه اللّغوي الذي يتفرّع إلى توجيه صوتي و توجيه صرفي وتوجيه معجمي وتوجيه نحوي وتوجيه بلاغي، ومع توسّع في الكلام عن التوجيه المعجمي من خلال دراسة نماذج تطبيقية مختارة من القراءات القرآنية وتحليلها لغويا ومعجميا بغرض الكشف عن الثمار المتنوعة للتغاير القرائي.

الكلمات المفتاحية: القراءات القرآنية؛ التوجيه؛ المعجمية؛ الثراء الدلالي.

***Abstract**:*

Defining the term "guidance" in language and idiomatically, where we presented and discussed several definitions by ancient and contemporary scholars. Synonymous terms were also reported. Routing types: a voice guidance,

morphological guidance, grammatical guidance, direction, and rhetorical guidance, with detailed speech of the lexical guidance of the Quranic readings, through an applied study of typical examples of Quranic readings from the linguistic and lexical aspects in order to reveal some of the richness of the holy Quran.

Key Words*: *Quranic Readings*; *Guidance*; *lexicality*; *Semantic Wealth.

- تعريف التوجيه لغة واصطلاحاً:

- التّعريف اللُّغوي:

التّوجيه: مصدر للفعل "وجه"، وهو مأخوذ من الوجه المعروف، والجمع وجوه وأَوجُه، وَوَجْهُ كل شيء مستقبله، ووجه الكلام السبيل الذي تقصد به، ووجه النّهار أوّله، ووجوه القوم سادتهم، واحدهم وَجِيه ووجه، ووجه الرأي هو الرأي نفسه، ورجل ذو وجهين: إذا لقي الناس بخلاف ما في قلبه.

والتّوجيه: إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين، وقال بعضهم: وَجَّه الحجر وجهة ما له... يُريد وجّه الأمر وجْهَهُ، ويضرب مثلاً إذا لم يستقم من جهة أن يُوجَّه له تدبيراً من جهة أخرى.[1]

والتّوجيه عند أهل العربية الفرق بين الوجوه والنّظائر.[2]

- التّعريف الاصطلاحي:

ونقصد هنا شرح المصطلح في اختصاص "علم القراءات القرآنية ، لأن هذا المصطلح يتردد ذكره في علوم أخرى كالبلاغة والشعر وعلم القافية، والغريب أننا لا نكاد نظفر بتعريف اصطلاحي في مراجع المتقدمين من علماء العربية والشريعة من نحاة ومفسرين وقراء... وقد يكون لهؤلاء عذر في عدم استهلال مباحثهم بإيراد التعاريف الدقيقة لكونهم كانوا منشغلين بتدوين المعارف و جمع المادة العلمية في حد ذاتها، وهذا معروف في التأسيس لأي علم من العلوم، ومن ذلك علوم العربية وهذا ما لاحظه أيضا الباحث العمري لحميدي حيث يقول: "النحاة لم يُعنوا بالتنظير له [التوجيه] رغم أنهم مارسوه كنشاط تطبيقي بكثافة في مؤلفاتهم وهذا

ابتداء من كتاب سيبويه"[3]، ويُصدِّق كلام الأستاذ ما نراه في الكتب العديدة المصنّفة في توجيه القراءات للمتقدمين ،مثل " إعراب القراءات السبع" و " الحجّة في القراءات السبع" لابن خالويه، و" الحجة للقراء السّبعة و عللها" لأبي علي الفارسي"، أو المحتسب في تبيان شواذ القراءات والإيضاح عنها" لابن جنّي، و" حُجّة القراءات" لابن زنجلة و"الكشف في وجوه القراءات السبع وعللها وحججها"، و" الإبانة عن معاني القراءات" لمكي بن أبي طالب، و"الموضَّح في وجوه القراءات وعللها" لابن مريم... وكثير غيرها، حيث لم يول مؤلفوها جميعا اهتماما بتعريف علم التوجيه اصطلاحا وإن درسه كل منه دراسة تفصيلية في كل آي القرآن التي وردت فيها قراءات مختلفة، هذا حال كتب الاختصاص، أما المعاجم فلو نخلناها نخلا من "العين" إلى "المعجم الوسيط" لوجدناها ذكرت كل معاني "التوجيه" اللغوية أو الاصطلاحية للعلوم المختلفة خاصة البلاغة وعلم القافية، بخلاف التوجيه في القراءات فإنه غير وارد فيها، بل حتّى في كتب اصطلاحات الفنون مثل"التعريفات" و "كشاف اصطلاحات الفنون" وغيرهما، على الرّغم من أن مصطلح التوجيه من أشدّ المصطلحات دورانا في مصنفات النّحو والقراءات والتّفسير، ومن أقدم ما وصلنا من تعاريف للتوجيه ما ورد عند بدر الدين الزركشي في "البرهان" تحت عنوان: " معرفة توجيه القراءات وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ" حيث يقول(عن التوجيه) :" هو فن جليل وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها، وقد اعتنى الأئمة به وأفردوا فيه كتبا منها: "الحجّة" لأبي علي الفارسي، وكتاب "الكشف" لمكّي، وكتاب "الهداية" لعمّار المهدوي، وكل منها قد اشتمل على فوائد، وقد صنفوا أيضا في توجيه القراءات الشّواذ، ومن أحسنها كتاب "المحتسب" لابن جنّي، وكتاب أبي البقاء [العكبري] ، وفائدته كما يقول الكوّاشي: أن يكون دليلا على حسب المدلول عليه أو مرجحا..."[4]

والزّركشي اهتم في هذا التعريف بذكر فائدة التوجيه، والدلالة على أهمّ كتبه، سواء التي في القراءات المتواترة أو الشاذة أكثر من اهتمامه بالمفهوم الذي أشار إليه باقتضاب في العنوان" معرفة توجيه القراءات وتبيين وجه ما ذهب إليه كل قارئ"، حيث ينحو بمعنى التوجيه وجهة التعليل وذكر الأدلّة، أما قوله" وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها" فنستروِحُ منه إشارة لعلاقة التّوجيه بالمعاني وثرائها ونخامتها.

ومن التعاريف القليلة التي تُذكر ما أورده طاش كبري زادة باقتضاب عن التوجيه، حيث يقول: بأنّه "علم باحث عن لميّة القراءات كما أن علم القراءة باحث عن إنّيتها، فالأوّل دراية والثاني رواية"[5].

ويقصد بلميّة القراءات لم كانت القراءة بهذا الوجه ؟ وعند التدبر في التّعريف يظهر لي فيه قصور حيث حصره في ذكر علل وحجج القراءات، وقد انتقد هذا التعريف أيضا الأستاذ عبد العزيز بن علي الحربي، ومما قاله في انتقاده: " قوله عن لميّة القراءات، مصطلح منطقي خاص، والتعريف قول شارح، وهو لا يكون بعبارة بعيدة غير متعارف عليها عند العامة، وإلا لِمن يكون شارحا، وفيه قصور لأن البحث في توجيه القراءات ليس منحصرا على : لم كانت القراءة بهذا الوجه مثلا، بل البحث في ذلك وفي الوجوه التي بيّنها"[6].

قلت: لم يستعمل طاش كبري مصطلح "التوجيه" الذي أوردنا له التعريف الآنف، إنما استخدم مصطلح "علل القراءات"، الذي استعاض به عن مصطلح "التوجيه"، ولربما دعاه إلى ذلك ما شاع عند متقدمي النحاة من استعمال مصطلح العلل والحجج، ومن هؤلاء مكي بن أبي طالب الذي يقول عن سبب تأليفه كتاب "الكشف عن وجوه السبع وعللها وحججه" : " كنتُ قد ألفتُ وأنا بالشرق كتابا مختصرا في القراءات السبع ... وسميته كتاب "التبصرة" وهو ما اختلف فيه القراء السبع المشهورون، وأضربت فيه عن الحجج والعلل ومقاييس النحو في القراءات واللغات طلبا للتسهيل و حرصا على التخفيف ووعدتُ في صدره أني سأؤلف كتابا في علل القراءات التي ذكرتها في ذلك الكتاب، أذكر فيه حجج القراءات ووجوهها وأسميه الكشف عن وجوه القراءات"[7].

فمكي في هذا النص يثبت يذكر أن كتاب "التبصرة" هو المتن أو الرواية و كتاب الكشف هو الشرح أو الدراية كما نلاحظ أنه يستخدم مصطلحي الحجج والوجوه استخداما ترادفيا.

تعريف التوجيه عند المُحدَثين: وردت لدى بعض الباحثين المعاصرين بعض المقاربات في تعريف "التوجيه" من الناحية الاصطلاحية، وقد اختلفت هذه المقاربات شمولا واجتزاء كما أنها وردت ملونة بتخصصات الباحثين، ومن التعاريف التي اكتفت بحصر التوجيه في مفهوم الاحتجاج والتعليل، تعريف الأستاذ النيرباني الذي يعرف التوجيه بأنه:" بيان وجه

كل قارئ فيما اختاره من قراءة ، وأكثر هذه الوجوه لغوية ومنها ما ليس كذلك... وسمي هذا الضرب من التأليف احتجاجا لأن أكثر من ألف فيه كان يفتتح بيان وجوه القراءة بقوله: (وحجة من قرأ بكذا...)[8].

وكذلك الأستاذ محمد أحمد الصغير الذي آثر استخدام مصطلح الاحتجاج عوضا عن التّوجيه حيث يقول: " والمراد بالاحتجاج هنا الكشف عن وجه القراءة في نحوها أو صرفها، أو لغتها وتسويغ الاختيار وذلك بأساليب اللغة الأخرى من قرآن وشعر ولغات"[9] .

والأستاذ هنا يفصل في ذكر أدوات الاحتجاج على صحة القراءة ويذكر منها القرآن والشعر واللغات .

وهناك طائفة من الباحثين لم يحصروا التوجيه في الاحتجاج و التعليل على صحّة القراءة ، بل ضموا إلى ذلك الإشارة إلى معاني القراءات القرآنية وفق التغاير الحاصل فيها ومن هؤلاء الأستاذ عمرو خاطر عبد الغني وهدان الذي يعرِّف التّوجيه بقوله: " ويَدُور معنى التّوجيه حول بيان الوجه المقصود من القراءة، أو تلمُّس الأوجه المحتملة التي يجري عليها التغاير القرائي، أو التحوُّل في التّركيب في مواضعه، وهو بذلك لا يكاد يختلف عن سابقه سوى أن بعض علمائنا المتأخرين أثروا استعماله على مصطلح الاحتجاج "[10].

وأصرح منه في التعبير عن المعنى والدلالة المُجْتَنَيَيْن من التغاير القرائي ما جاء في تعريف الأستاذ عبد العزيز الحربي الذي يعرف التوجيه بقوله: "علم يبحث فيه عن معاني القراءات والكشف عن وجوهها في العربية أو الذهاب بالقراءة الجهة التي يتبيّن فيها وجهها ومعناها"[11].

ومن أحسن ما قرأت تمييز الأستاذ جمال عبد الله أبو سلهوب توجيه القراءة إلى توجيه ببيان معناها وتوجيه ببيان أنها لغة فيقول عن الأوّل:" توجيه القراءات ببيان المعاني المتنوِّعة غير المتعارضة من أجل إثراء هذا التفسير وإبراز روعته وإعجازه الرباني و بيان مراد الله عزوجل"[12].

اتّجاهات علم توجيه القراءات وأنواعه:

يقول الأستاذ " عمرو خاطر عبد الغني وهدان": وقد ظهرت أربعة اتّجاهات في توجيه القراءات... الاتّجاه الأول: الاتجاه اللُّغوي، فقد اعتد هذا الاتجاه بركن موافقة القراءة للعربيّة، لا بوصفه مناط قوة لها فحسب، بل لأنه صار عندهم مجالاً خصباً للتعليل والتّحليل، الذي يتضمَّنُ في الغالب تلمُس الوجوه اللغوية التي تجري عليها، وهي وجوه تّنوعت بحسب تنُّوع أوجه التّغاير القرائي ما بين وجوه نحوية تتعلّق بمواقع الكلمات وتغاير وظيفتها داخل تراكيبها، وصرفية تتعلق بوزن الكلمات واشتقاقها، وصوتية تتعلق بطرق الأداء، ودلالية تتعلق بمدلول اللّفظ في سياقه، واستعان الموجهون في تحليل ذلك كلِّه بنظائره القرآنية، وبما عنّ لهم من لهجات العرب، وأقوالها شعراً ونثراً ، كما توسّلوا إلى إبراز معنى القراءة ودلالتها بمعارف أخرى كأسباب النّزول ومناسباته، ومعرفة التّفسير والغريب، ومراعاة سياق الآي، والمقام الذي وردت فيه القراءة ... ثم عدّد بقية الاتجاهات وهي الاتجاه الفقهي والاتجاه المذهبي والاتجاه البلاغي[13].

يتضح من كلام الأستاذ أن اتجاهات علم توجيه القراءات هي: الاتجاه اللغوي و الاتجاه الفقهي والاتجاه المذهبي و الاتجاه البلاغي ،وكأني بالأستاذ قد جعل الاتجاه البلاغي قسيما للتّوجيه اللُّغوي وهذا -في نظري- غير وجيه ، وكأنّ البلاغة لا تندرج ضمن العلوم اللّغوية، فهي كالفقه في مقابل اللغة ، فعلاقة البلاغة باللغة هي علاقة اندراج ، وليست علاقة تجاور في الصف التصنيفي، ولعلّ ما دفعه إلى ذلك هو التزامه بمستويات التّحليل اللّغوي المعروفة التي ليس من ضمنها المستوى البلاغي، فأقول بأنّ تحديد مستويات الدّرس اللغوي والتزامها في بحث علمي لا يبررُ إخراج البلاغة عن دائرة اللغة، فهي هي ركن وأساس في الدرس اللغوي ،

و توخيا للتركيز في الدراسة لا نتعرض إلا للاتجاه الأول لعلاقته بعنوان المقال:

- **الاتجاه اللغوي**: تندرج ضمنه أربعة أنواع من التّوجيه هي:

1. **التّوجيه الصّوتي للقراءات القرآنية**: ويقصد به تعليل الاختلافات في القراءات القرآنية في الجوانب الصّوتية والنطقية مثل تحقيق الهمزة وتسهيلها والإدغام وفكّه، والإمالة والتّشديد والتّخفيف والتّحريك والإسكان والإعلال والإبدال، والوقف والسّكت والتّنغيم،

والإتْباع الحركي والإشباع وذكر حجج كل فريق وتعليل أسباب ورود هذا النّوع من الاختلافات في القراءات القرآنية، والدّراساتُ الحديثة في هذا النوع من التوجيه تستفيد من معطيات الدراسات اللّسانية في الصّوتيات والصّوتيات الوظيفية.

2. **التّوجيه الصَّرفي**: وهو يتعلق بإبراز بعض وجوه القراءات وتوجيه اختلافاتها في الاشتقاق، ودلالات الأبنية الصّرفية المختلفة، والمصادر وعلاقات هذه الأقسام ببعضها البعض، وكذا اختلافات الجمع والإفراد إلى غير ذلك من المباحث الصرفية.

3. **التوجيه النّحوي**: ويقصد به إبراز وجوه القراءات المختلفة من النّواحي النّحوية والتركيبية، والتّوجيه النحوي يطال الأسماء من حيث إعرابها وبناؤها، من حيث الرّفع والنّصب والجر، والتّنوين وعدمه، ومن حيث الفاعليّة والمفعوليّة، كما يطال الأفعال من حيث الأمر والماضي والخطاب والغيبة، ومن حيث التّوكيد وعدمه، وإسناده إلى المتكلِّم أو الخطاب وبناؤه للمعلوم أو المجهول، كما يطال التّوجيه النحوي أيضاً الحروف من حيث تخفيفها وتشديدها إلى غير ذلك، إضافة إلى التوجيه من حيث الأساليب النحوية، كالتغاير القرائي بين الأساليب الخبرية والإنشائية، مثل التغاير بين الخبر والاستفهام والخبر والنهي والخبر والشرط، وبين الخبر والنداء وبين الأساليب الإنشائية فيما بينها...

4. **التَّوجيه البلاغي**: وهو الاتجاه الذي يُعنى بالإشارة إلى الوجوه البلاغية المترتّبة عن تغاير القراءات واختلافها، وتلمُّس دورها في إبراز بلاغة القرآن بوصفها وجهاً من وجوه إعجازه[14] ومن ذلك إبراز وجوه القراءات في الخبر والإنشاء والفصل والوصل، والالتفات...

5. **التوجيه المعجمي**: وهو يتعلق بتوجيه التغاير بين القراءات المتواترة فيما بينها، أو بينها وبين الشاذة أو فيما بين الشاذة، من حيث اختلاف الألفاظ والكلمات الواردة فيها، مما لا تعلق له بالأصوات أو الصّرف أو التركيب، سواء كانت الاختلافات في الأفعال أو في الأسماء، وملاحظة أثر ذلك على المعنى والدلالة، وهذا البحث جد نادر في الدراسات المتعلقة بالتوجيه، حيث لم أقع على باحث أفرد لهذا النوع من التوجيه بحثا خاصا متكاملا سواء من حيث التنظير أو الدراسة التطبيقية، لذلك فعملنا في هذا المقال هو نوع من التأسيس، ولا ندعي أننا نخترع ذلك اختراعا، وإنما نلتقط شتات الأمثلة المتناثرة ونلم شعثها من كتب التفسير

وغير ذلك من المراجع ونحاول إبرازها في موضوع موحّد لنلفت النظر إلى هذا النوع من التوجيه الذي عزف عنه المصنِّفون، وقد رتبته ضمن أنواع التوجيه على غير الترتيب المعتاد للمستويات اللغوية الذي يبتدئ بالمستوى الصوتي إلى الدلالي لألفت النظر إليه.

ثانيا : دراسة نماذج من التوجيه المعجمي للقراءات:

اخترت من نماذج التغير المعجمي ما ثبتت قرآنيتُه بالقراءات المتواترة فقط ولم ألتفت إلى ما ورد في القراءات الشّاذة وهو كثير.

النموذج الأول: قال تعالى: "وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما "[البقرة:259].

وردت في لفظة " ننشرها" في الآية الكريمة قراءتان متواترتان:

- **نُنشِزُها:** بالزاي وضم النّون، وقرأ بها من العشرة ابن عامر، وعاصم وحمزة والكسائي وخَلَف .

- **نُنشِرُها:** بضم النون والرّاء المهملة، وقرأ بها نافع، وابن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وابن عامر وأبو جعفر[15].

وقد روى الصحابة عن النبي - صلى الله عليه وسلم- القراءتين كلتيهما، وقد أثبت كَتَبَةُ المصاحف العثمانية هذه اللفظة بما يسمح بالقراءتين إذ لم تكن تلك المصاحف مُعجمة ولا مشكولة.

فما معنى كل القراءة ؟ و ماهي الفوائد الدلالية التي أتاحها التغاير القرائي الوارد في الآية ؟

قال أبو حيان" ومعنى ننشزها بالزاي نحركها أو نرفع بعضها إلى بعض للتركيب والإحياء، يقال نشز وأنشزته... قال ابن عطية: " وتعلّق عندي أن يكون معنى النشوز رفع العظام بعضها إلى بعض، وإنما النشوز الارتفاع قليلا... وقال النّقاشي ننشزها معناها نُنبتها ... ومن ذلك نشز ناب البعير، والنشز من الأرض على التشبيه من ذلك، ونشزت المرأة كأنها فارقت الحال التي ينبغي أن تكون عليها ، (وانشزوا فانشزوا) أي: ارتفعوا شيئا فشيئا كنشوز الناب، فبذلك تكون التوسعة فكأن النشوز ضرب من الارتفاع"[16].

-أما لفظة نُنشِرها الواردة في القراءة الثانية فمعناها : نُحييها كما ذهب إلى ذلك المفسرون وعلماء القراءات، قال عمار المهدوي:" ننشرها براء فمعناه نحييها مثل قوله تعالى: " قال من يحيي العظام وهي رميم" (يس: 78)، فكما أخبر عن العظام بالإحياء في ذلك المكان، فكذلك أخبر عنها ههنا بالإنشار الذي معناه الإحياء"[17].

وزاد القرطبي هذا الأمر إيضاحا بقوله: " وأنشر الموتى فنشروا، أي: أحياهم فحيوا، قال تعالى:" ثم إذا شاء أنشره" (عبس: 22)، ويكون نشرها مثل نشر الثوب، ونُشر الميتُ يُنشر نشورا أي: عاش بعد الموت، فكأن الموت طيٌّ للعظام والأعضاء وكأن الإحياء وجمعُ العظام إلى بعضها نشر"[18].

وبمثل ما وجّه المهدوي والقرطبي قال كل من ابن مريم[19] ومحمد سالم محيسن[20]

من خلال ما أوردنا من نُقول يمكن تلخيص معنى ننشزها : نرفعها، وننشرها نحييها، وهما كلمتان ليستا متطابقتين من حيث الدلالة ، عدم التطابق هذا لا يفضي إلى التخالف والتناقض، بل إلى إثراء المعنى وإثراء الدلالة، ذلك أن قراءة "ننشزها" فصّلت المعنى الذي جاءت به قراءة "ننشرها"، وبيّنت كيف يتم هذا الإحياء وأنه لم يتم دفعة واحدة كلمح البصر، وإلا لما كان لقوله تعالى: " وانظر إلى العظام كيف ننشزها" معنى، فالمقصود هو تمكين "عُزَير" من رؤية كيفية الأحياء والنشر لهذه العظام النخرة التي مضى عليها مائة سنة، "فننشرها" أفادت معنى الإحياء بعد الموت، وننشزها أفادت الكيفية مع تضمن معنى الإحياء طبعا، إذ تم تجميع هذا الرميم حتى تحولت إلى عظام، ثم تم رفع العظام بالتدريج- كما قال ابن عطية- ثم تم تركيبها ورفعها لتنتظم في عمود فقري، والإحياء التام لا يكون إلا بعد اكتمال الخلق وإتمام المراحل، ،أما التعبير بإحياء العظام الذي نطقت به الآية فيحتمل جمعها وتركيب هياكلها وإحياء الخلايا العظمية، وهذا غير كاف لوصف الكائن بالحياة، فلابد بعد ذلك من تغذيتها دما وكسائها لحما وعصبا وجلدا ، وهكذا تعاونت القراءتان في توسيع الدلالة وتعميق الفهم دون أن تناقض إحداهما الأخرى.

النّموذج الثّاني: قال الله تعالى: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكثر من نفعهما" (البقرة: 219).

وردت في هذه الآية الكريمة قراءتان متواترتان :

القراءة الأولى: " إثم كبير" بالباء وهي قراءة جمهور القراء العشرة، واختارها من غيرهم الحسن وأبو رجاء والأعرج، ومجاهد وشيبة وقتادة وعليها العامة.

القراءة الثانية " إثم كثير" بالثاء وقرأ بها من العشرة الإمامان حمزة والكسائي وقرأ بها ابن مسعود والأعمش[21].

- من البين أنه لا يوجد ترادف بين لفظتي "كبير " و " كثير" الواردتين في القراءتين المتواترتين عن رسول الله، وبما أن القراءتين صحيحتان قطعا بالتواتر المذكور فلا مجال لترجيح لفظة على أخرى كما دأب غير واحد من الموجهين، والمفروض أن يتوخى البحث معرفة ثمار هذا التغاير بعد ثبوته .

ونبدأ بذكر ما احتج به الموجِّهون لكل قراءة ثم نثّني بعد ذلك بمحاولة اكتناه أسرار هذا التّغاير، فمّا قيل في تعليل قراءة الجمهور "كبير" أنّ من قرأ بها فإنه وصفٌ للإثم العظيم، وإنما سمّيت الموبقات كبائر، ومنه قوله تعالى: " الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش" (النجم: 32)، وقد عبّر الله عن إثم أكل أموال اليتامى بقوله: "حوبا كبيرا" (النساء: 2) كما استدلّ الموجّهون أيضا باتفاق القراء جميعا على وصف إثم الخمر والميسر بأنه أكبر من نفعهما وهذا يوافق قراءة الجمهور، ومنهم من قال إنّهم وصفوا الذنب الذي ليس موبقا بأنه صغير ولم يقولوا عنه: "قليل" فصغير مقابل كبير، كما أن العلماء اتفقوا على اعتبار الخمر من الكبائر فناسب وصف إثمه بالكبر.

- أما قراءة "كثير" فاحتج لها العلماء بعدة حجج منها:

أن وصف الإثم بالكثرة إنما هو لاعتبارات منها:

أ- اعتبار الآثمين فهم متعددون، الشاربون والمقامرون، فكل منهم آثم.

ب- اعتبار ما يترتب على كل منهما من آثام فالخمر يترتب على شربها الأقوال السيئة والأفعال القبيحة، والميسر قد تترتب عليه البذاءة والخصومات التي قد تفضي إلى ارتكاب المنكرات كالضرب والتحايل والخداع و الغش...

ج- باعتبار من يزاولها (الخمر) منذ كانت إلى أن شُربت، وقد صح في الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قد لعن الخمر ولعن معها عشرة ، بائعها و مبتاعها، و المشتراة له وعاصرها والمعصورة له وحاملها، والمحمولة له، وساقيها وشاربها وآكل ثمنها[22] .

وبعد ذكر هذه التعليلات والحجج ماهي الثمار المجتناة من هذا التغاير القرائي ؟

- إن وصف إثم تعاطي الخمر والميسر بأنه "كبير" هو وصف لترتيبهما في سلم أو دركات المعاصي والآثام فهما من الموبقات والكبائر، أما وصفه بأنه:" كثير" فهو - حسب رأيي- من قبيل التفسير والتعليل، لعظم وكبر هذا الإثم، لأنهما إثمان متعديان، تنشأ عنهما آثام أخرى، قد تكون هي الأخرى من الكبائر، فشارب الخمر ولاعب الميسر قد ينشأ من تلبسهما بهاتين المعصيتين سب وقذف وهذر، وكذب وخصومات وتحايل، وربما قتل وقد عدد الله تعالى في سورة المائدة بعض هذه الآثام في قوله: " إنما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن الصّلاة فهل انتم منتهون" (المائدة: 91).

وقد جاء وصف الإثم بالإفراد في مقابل "منافع" ، فدل على أن المراد: آثام فوحَّد في اللّفظ ومعناه الجمع، وتقدير الكلام كما قال ابن زنجلة: " قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس كما قال: "**يتفيأ ظلاله باليمين والشمائل**" ، فوحد في اللفظ والمراد الأيمان، لذلك عطف عليه بالشمائل وهي جمع"[23].

النّموذج الثالث: قال الله تعالى: " هُنالِكَ تَبْلُو كلُّ نفسٍ ما أَسْلَفَتْ" (يونس: 30).

وردت في لفظة تبلو قراءتان متواترتان:

القراءة الأولى: " تتلو" بالتاء وقد قرأ بها حمزة والكسائي وخَلَف، من الأئمة العشرة، ورواها غيرهم عن الأعمش وزيد بن علي وآخرين.

القراءة الثانية: " تبلو" بالباء وقد قرأ بها ابن كثير ونافع، وأبو عمرو بن العلاء، وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ، ورواها آخرون عن ابن عباس ومجاهد[24].

لا ريب أن "التلو" أو "التّلاوة" غير " البلو" أو "البلاء"، فكيف تعامل المفسّرون وعلماء التّوجيه والقراءات مع هذا التّغاير ؟

- فبالنسبة لقراءة " تتلو" فلها وجهان ذكرهما معظم من تعرض للقراءة بالتوجيه، إما أن تكون "تتلو" من التلاوة أي: القراءة، محتجين على ذلك بقوله تعالى :" ونُخرِجُ لهم يوم القيامةِ كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابكَ بنفسِكَ كفى بنفسِكَ اليوم عليكَ حسيباً" (الإسراء: 13).

أو قوله تعالى: " أولئكَ يَقرؤون كِتابَهم و لا يُظلَمونَ فَتيلا " (الإسراء: 71)

أو تكون " تتلو" من التتبع و المتابعة، قال الزجاج: " وفسروه أيضا " تتلو" تتبع كل نفس ما أسلفت ، مثل قول الشاعر:

قد جعلت دلوي تَسْتليني ولا أحبُّ تَبَع القرينِ

أي تستتبعني، أي: تستدعي اتباعي لها"[25]

وهذا الاتباع هناك من حمله على الحقيقة، أي: أن المرء يتبع عمله الذي أسلفه اتباعا فيه تجسيم، لهذا العمل ، قال الألوسي: " وقيل إن ذلك كناية عن ظهور الأعمال، وجوِّز أن يكون من" التلو" على معنى أن العمل يتجسّم ويظهر فيتبعه صاحبه حتى يرد به إلى الجنّة أو النّار، أو هو تمثيل"[26].

-إذن تدور معاني " تتلو" كما ذكر المفسرون على لقراءة و الاتّباع والمتابعة، وهناك من ذكر من معاني " تتلو" تطلب[27] .

أما قراءة " تبلو" - وهي قراءة جمهور العشرة - فقد اتفقت كلمة المفسرين والموجهين على أن " تبلو" من البلاء وهو الاختبار، واحتجوا على ذلك بقول الله تعالى: " يوم تبلى السرائر" (الطارق:9) وبقوله تعالى: " ينبأّ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر" (القيامة: 13).

ماهي الفوائد التي يمكن أن نستشفها من قراءة " تبلو" بالإضافة إلى ما تشترك فيه مع قراءة "تتلو" في معرفة وعلم ما في الصحائف يوم القيامة، إذ كل منهما تتضمنان معنى العلم والمعرفة أو يفضيان إليه ؟

أرى - والله أعلم - أن قراءة " تبلو" تصف لنا واقع هذه القراءة والجو النفسي الذي يصاحبها، فلا ريب أن المسيئ سيكون فرقا ومشفقا مما هو مقدم الله عليه كما قال تعالى: "وَوُضع الكّتاب فترى المجرمين مُشفقين ممّا فيه" (الكهف:49)، وقد عبّر بعض المفسِّرين عن كلمة " تبلو" ب:تعاين[28] أو تُسلَّم[29]، أو تذوق[30]، وهكذا نجد أن لفظة " تبلو" إضافة إلى تقاطعها مع لفظة " تتلو" في تضمنهما معنى العلم، قد عمّقت المفهوم أكثر بإضافة الجو النفسي المرافق لهذه التلاوة للصحف، وما فيه من خوف وندم وتحقير ومذلة وتحسّر وتعجّب من عدم انفلات أيِّ عملٍ من أعمالهم ولو ضَؤُل من التّقييد و التّسجيل.

النموذج الرابع: قال الله تعالى: " والذين آمنوا لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها..." (العنكبوت: 58)

وردت في هذه الآية الكريمة قراءتان متواترتان:

القراءة الأولى: " لنبوئنّهم" الباء قرأ بها جمهور القراء العشرة من المباءة.

القراءة الثانية : " لنثوينهم" بثاء مثلثة ساكنة بعد نون و ياء مفتوحة، قرأ بها حمزة والكسائي و خلف، ورواها آخرون عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، والأعمش[31].

-احتج العلماء للقراءتين بمجموعة من الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية ومن الشعر العربي، ومما استدلوا به على قراءة " لنبوئنهم" قوله تعالى: "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ..."(الحج: 26) وقوله : " والذين تبوأوا الدار والإيمان" (الحشر: 9)، ومن الحديث النبوي قوله - صلى الله عليه وسلم - " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"[32]. ومن الشعر قول الأعشى:

أَثْوى وقَصّر ليله لِيُزَوَّدا ومضى وأخلف من قُتيْلَةَ موعدا

أمّا قراءة " لنثوينهم" فقد استدلّوا لها بقول الله تعالى: " وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا" (القصص: 45).

ومعظم من تكلم من العلماء في توجيه القراءتين ساوى بينهما في المعنى ومن هؤلاء ابن خالويه الذي قال: " قرأ حمزة والكسائي لنثوينهم بالثاء وقرأ الباقون بالباء ومعناهما واحد"[33] ونسب ابن زنجلة للفراء أنهما في المعنى سواء[34].

وبعض العلماء حاول التدقيق في الدّلالات أكثر، ومن هؤلاء ابن الجوزي الذي قال: "لنبوِّئنهم من المباءة وهي الإنزال، أي: لننزلنّهم ، ولنُثْوِيَنّهم وهو من ثويتُ بالمكان إذا أقمتُ فيه، فال الزجّاج: ثوى الرجل إذا أقام، وأثويته إذا أنزلته منزلا يقيم فيه"[35].

وهذا الفريق أقرب إلى الصّواب في نظري لأنّ التّرادف الذي نستشفُّه من أقوال الفريق الأول(القائلون بالمعنى الواحد) نادر الحدوث ، وهناك من العلماء من أنكره في اللّغة العربية، بالإضافة أن الترادف يقتضي إمكانية الاستبدال بين اللفظتين في كل السياقات دون أن يتغير المعنى، وهذا غير ملاحظ في قوله تعالى: " وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت"، قال البغوي : أي: وطأنا، وقال ابن عباس: جعلنا، وقيل بيّنّا، وقال الزجاج: جعلنا البيت مبوّءا لإبراهيم، ...وقال مقاتل هيّأنا.

وبعض هذه المعاني التي ذكروها " لبوأنا" لا تتطابق ومعنى " أثوينا" أي من ثوى : أقام ونزل أو سكن، وإني أستروح في "بوأنا" معنى الكرامة والرفعة، يقال: فلان تبوأ مكانة سامية في القلوب ، فليس التبوّء مجرد نزول أو حلول أو ثواء، فقد يعني أيضا شيئا زائدا عن ذلك ، جاء في لسان العرب:" تبوّأ فلان منزلا إذا نظر إلى أحسن ما يُرى وأشدِّه استواء، وأمكنه لمباءته فاتّخذه، قال أبو زيد: أبأتَ القوم منزلا وبوّأتَهم منزلا إذا نزلتَ بهم إلى سند جبل، أو قِبَلَ نهر ... واستدلّ ببيت أنشده ابن قتيبة في "المشكل" :

وبوأتُ بيتكَ في معلمٍ رحيبِ المَباءةِ والمسرجِ

ويقال هو رحيب المباءة، أي: سخي واسع المعروف"[36].

وإني أستأنس في هذا الرأي بقول بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: لنبوئنّهم من الجنة غرفا " لنبوئنهم من الجنة علالي، ومن هؤلاء الماوردي[37] و النسفي[38]، وأبو السعود[39] ولعلهم تبعوا في ذلك ابن جرير الطبري، إذ استخدم اللفظ ذاته[40]، وهكذا تتظاهر القراءتان على إبراز معنى الخلود(الثواء) في المنازل و الغرف العالية.

النّموذج الخامس: قال الله تعالى: " ولو دُخِلت عليهِم من أقطارِها ثُمّ سُئِلوا الفِتنةَ لأَتَوْها وما تَلَبّثوا بها إلا يَسيرا " (الأحزاب: 14).

وردت في هذه الآية الكريمة قراءتان متواترتان:

- القراءة الأولى: " لأتوها" بقصر الهمزة، وقرأ بها من الأئمة القراء نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان، وابن كثير وأبو جعفر.

- القراءة الثانية: " لآتوها" بالمد وقرأ بها الأئمة الباقون، وهم عاصم و حمزة والكسائي، وأبو عمرو بن العلاء وابن كثير في رواية ابن فليح[41].

و النظرة العجلى للقراءتين تومئ إلى مفارقة دلالية بينهما، فالأولى بمعنى "جاؤوها" والثانية بمعنى "أعطوها" والبون شاسع بين جاء وأعطى، وكثير من تناول القراءة الأولى بالتوجيه من العلماء أثبت

معنى " جاؤوها" لقراءة " لأتوها[42]"، وكثير ممن وجه القراءة الثانية "لآتوها" بالمد ذكر معنى الإعطاء[43].

ولكننا نقرأ في ثنايا توجيهات الأقدمين مقاربات لردم الثغرة الدلالية الظاهرية بين القراءتين، فابن زنجلة يوجه قراءة " لأتوها " : بقوله لفعلوها[44]، معتمدا في ذلك على الزجّاج، وهكذا تضيق الثغرة قليلا، لأن فَعَلَ الفتنة يقترب دلاليا من أعطاها، و يتدعّم هذا الفهم بقول

الحسن: " لو دُعُوا إلى الشِّرك والفتنة لفعلوا"، و يستقيم هذا الفهم بتقدير محذوف، ويكون التوجيه: لو سُئلوا الفتنة (المنافقون)، لفعلوها والقرينة على هذا التوجيه مقالية هي قوله تعالى: " ثم سئلوا".

وأرى أن الإثراء الذي نجتنيه من قراءة " لأتوها" - بمعنى جاؤوها أو قصدوها- أن هؤلاء المنافقين من ساكني المدينة لم يكتفوا بمجرد الاستجابة لمن سألهم فعل الفتنة والإرجاف من المشركين، بل هم أصلا من جاؤوا ليتطوعوا بزرع الفتنة وإيقاد جذوتها، طيِّبَةً بذلك نفوسهم، متحركة بذلك جوارحهم، ولهم منها كل الحظوظ، حظ اللسان و حظ الحركة والسعي, فالمعنى أوسع من أن يحصر في مجرد الاستجابة لطلب المشركين، وهكذا نلمس أن التغاير القرائي قد أتاح ثراء دلاليا وتوسيعا للمعنى وتصويرا حيّا جيِّدا لجبهة النفاق في المدينة التي لا تكتفي بالاستجابة فحسب لمطالب أعداء الله ورسوله، بل تبادر بالحركة الذاتية من أجل الوقيعة بين المسلمين بإذكاء نار الفتنة واهتبال أي سانحة من ضعف أو غفلة للإضرار بالإسلام والمسلمين.

من خلال هذه النماذج التي اخترناها لتطبيق التوجيه المعجمي في القراءات يتضح لنا دور الاختلاف القرائي في الثراء المعنوي و التنوع الدلالي وتعميق الفهم ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال دراسة متأنية لدلالات الألفاظ والتفحص الناقد لآراء المفسرين والنحاة، وإرهاف الحس التذوقي الجمالي لإدراك بعض مظاهر الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

الهوامش :

1- ابن سيدة علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم، ط1، ج4، تح مراد كامل، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ،1377-1958،ص 287، وكذلك الخليل بن أحمد ،العين، ط1، تح: خليل هنداوي ،بيروت -لبنان، دار الكتب العلمية،ج1، ص 275، وابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دت، ج 52، ص4775 .

2- علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، ط3، ج1، تحق: محمد صديق المنشاوي ،القاهرة دار الفضيلة،ص 23.

[3] -العمري لحميدي، التوجيه اللغوي للقراءات القرآنية من خلال كتاب إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، مخطوط مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان العربي إلى جامعة محمد خيضر بسكرة، 2010- 2011، ص:52.

[4] - الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح:محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، مكتبة دار التراث، ط1404،3- 1984م، ج1،ص:342.

[5] -طاش كبري زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ،بيروت- لبنان دار الكتب العلمية، ط1405،1- 1985، ج3 ، ص:335-336.

[6] - عبد العزيز بن علي بن علي الحربي، توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية لغة وتفسيرا وإعرابا، مخطوط بحث مقدم إلى كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى لنيل درجة الماجستير، 1417- ص63.

[7] -مكي بن أبي طالب القيسي، الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها ، تح: رمضان عبد التواب، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1394-1975، ج1، ص: 3-4 .

[8] - عبد البديع النيرباني، الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، مخطوط رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة حلب، 1426- 2005، ص:2.

[9] - محمد أحمد الصغير، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، دمشق- دار الفكر، ط1، 1999، ص:206.

[10]- عمرو خاطر عبد الغني وهدان ، التوجيه اللغوي للقراءات السبع عند أبي علي الفارسي في كتابه الحجة، دراسة تطبيقية على مستويات التحليل اللغوي، القاهرة ، مكتبة الآداب، ط1430،1-2009،ص:18.

[11] -توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية لغة وتفسيرا وإعرابا، ص: 63-64.

[12]- جمال عبد الله أبو سلهوب، منهج القرطبي في القراءات وأثرها في تفسيره، مخطوط بحث مقدم إلى كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية لاستكمال الماجستير، دت، ص:214.

[13] - ينظر التوجيه اللغوي عند أبي علي الفارسي في كتابه الحجة، ص: 13.

[14] - ينظر أحمد سعد محمد التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، القاهرة، مكتبة الآداب، ط4، ص:30.

[15] - عبد اللطيف الخطيب ، معجم القراءات ، دمشق، دار سعد الدين للنشر والتوزيع، ط1، 1422-2002، مج1، ص:397-398.

[16] - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض وآخران، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 1413-1993، ج2، ص:305.

[17] - أحمد بن عمار المهدوي، شرح الهداية ، تح: حازم سعيد حيدر، دت، ج1،ص:205-206.

[18] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، تح:عبد الله بن عبد المحسن التركي و محمد رضوان عرقسوسي،مؤسسة الرسالة، ج4، ص:305-306.

[19] - ابن مريم نصر الدين الشيرازي، الموضح في وجوه القراءات وعللها، تح: عمر حمدان الكبيسي، مخطوط بحث قدم لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى،1408، ج1ص: 342.

[20] - محمد سالم محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، دار الجيل، بيروت- لبنان ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط3، 1418- 1988، ص: 273.

[21] - معجم القراءات، ج1،ص:301.

[22] - ينظر السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، - دمشق ج2، ص: 407- 408، وينظر أيضا شرح الهداية ،ص197، وحجة القراءات، ص:173، و المغني في القراءات العشر المتواترة، ص: 244.

[23] - عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، حجة القراءات، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط5، 1418-1997ص: 133.

[24] - معجم القراءات، ج3، ص: 537- 538.

[25]- الزجاج إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عيسى، عالم الكتب، بيروت- لبنان، ط1، 1407-1988، ج3،ص: 17

[26] - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان ، دت، ج11، ص:109 ،

وينظر أيضا عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وعبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط1418،1 - 1977، ج3، ص: 245.

[27] - ينظر ابن خالويه، إعراب القراءات القاهرة مكتبة الخانجي، السبع وعللها، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، 1413- 1992، ج1، ص:267، وينظر أيضا محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج6، ص472، موقع التفسير، htpp//www.altfsir .com وحجة القراءات، ج331.

[28] - ينظر جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل ، تح : فؤاد عبد الباقي ،ط1376،1- 1959، ج9،ص: 3343. وكذلك روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ج11، ص: 109.

[29] -ينظر البحر المحيط، ج5، ص: 155.

[30] - ينظر الشوكاني، فتح القدير ، ج3، ص: 371، موقع التفسير htpp://www.altafsir.com

وينظر أيضا حجة القراءات،ص: 371، والبحر المحيط، ص ن، و محاسن التأويل ص ن.

[31] - معجم القراءات، ج 7 ، ص: 124

[32] - حديث متواتر رواه البخاري ومسلم، والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد وآخرون.

[33] - ينظر إعراب القراءات السبع ، ج2، ص: 190- 191.

[34] -ينظر حجة القراءات، ص: 354- 355.

[35] - عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، ط3، 1404- 1984، ج6، ص: 282.

[36] - ابن منظور ، لسان العرب، ج5، ص: 382.

[37] - الماوردي، أبو الحسن، النكت والعيون، تح: السيد بن عبد المقصود، عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ج4، ص: 292.

[38] - وينظر أيضا النسفي أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج3،ص: 80، موقع التفاسير http://www.altafsir.com

[39]- أبو السعود بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تح: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة السعادة، مكتبة الرياض الحديثة، دت، ج4، ص: 354.

[40] - محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1422- 2001، ج7، ص:436.

[41] - معجم القراءات، ج7،ص: 261- 262.

[42] -ينظر عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ، ط1422،1 - 2001، ج4،ص: 374، وكذلك، ينظر: أبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم ، تح: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ، جامعة مكة، ط1، 1410- 1989، ج5،ص: 234.

و البحر المحيط، ج7ض: 213 ، وينظر الدر المصون، ج9، ص: 102- 103.

[43] -ينظر حجة القراءات، ص: 574-575، وشرح الهداية، ص: 475، والجامع لأحكام القرآن، ج17،ص:99-100، ومعاني القرآن الكريم، ج4،ص: 220.

[44] - ينظر حجة القراءات ، ص ن.